بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

صدق الله العظيم

(التوبة 105/9)

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الثانية

لم يعد أحد يماري في أن الشكل ليس عنصراً جمالياً وحيد الاتجاه في إثارة المشاعر وتصعيد الانفعال ثم إذا تكامل الشكل والمضمون فإن الوجود الفاعل المثير والممتع للبنية الفنية والأدبية؛ والبلاغية والأسلوبية تصبح متعددة الفوائد والأفكار... ولعل الناقد الجمالي الخبير؛ الحاذق، المتنوع الثقافة قديمها وحديثها يرى في مستويات الجمال ألواناً وأطيافاً لا يراها الآخرون؛ ويمكنه أن يستبطن دواخلها ليستلهم منها أفنان الأسرار التي لم تخطر على بال كثير من القدماء والمحدثين... وكم من ناقد جمالي آخر جهد في عمله ورؤاه ولكنها تلاشت كفقاعة في الهواء؛ أو ماتت في سدفة الليل البهيم، أو سقطت في رحم طين لازب تحتاج إلى من يستخرجها... والكلام البليغ مراجعة متأنية ومتدبرة بعد مراجعة؛ ولولا أنه يعاد لنفد ؛ كما قال الإمام علي (رضي الله عنه)؛ أما المعاني المستفادة منه فهي كامنة في تضاعيفه بعد أن كانت كامنة في الطباع.

وتبقى كل قراءة للنص الأدبي أو البلاغي –صغر أم كبر –قراءة تبادلية بين القارئ والمؤلف من جهة وبين القارئ والمتلقي من جهة أخرى؛ وهي ثمرة علاقة ذاتية وموضوعية للرسائل التي يبثها لبيان مدى قيمتها النقدية والجمالية، بوصف التعبير عنها عملية نفسية وثقافية تختلف في طريقتها ودرجات تأثيرها كما انتهى إليه (بنديتو كروتشة)...

وهذا لا يعني إساءة الظن باللغة التواصلية؛ وإنما يؤكد أن طريقة التحليل لنص تعبيري تختلف أيما اختلاف عن أي طريقة أخرى من طريقة الوصف إلى طريقة السرد. ومن ثم لا يمكن أن تكون طريقة التأويل مماثلة لطريقة التفسير والشرح... وإذا كنا نؤمن بأهمية ما انتهى إليه كروتشة في مكانة الشكل، فإننا نوقن -أيضاً -بأن الإحساس بالجمال ليس مجرد حَدْس عابر؛ وإنما هو رؤية الذات المبدعة في وسط مليء بالرؤى والمشاعر، أي لابدّ من ربطه بالأسباب والدوافع كما ذهب إليه علماء الجمال الماركسيون... من دون أن

نهمل توجهات المدرسة البنيوية بوصفها تعتمد البنية الإبداعية المنبثقة من البنية الاجتماعية كما هي عليه عند (لوسيان جولدمان)؛ ومن دون أن نهمل البنية اللغوية لطبيعة كل نص بلاغي كما عرفه العرب ونقادهم، وها نحن نتوقف عنده لنعرف نظامه ونسقه وبيان قيمة كل منهما...

وإذا كان الجمال في الأشياء والظواهر والكون والإنسان انزياحاً في الرؤية والشعور فإن الانطباع الذي يقع في نفس المتلقي هو الحكم الصادر عن طبيعة التلقي ومرجعياتها وعناصرها وزمانها ومكانها، ومدى القدرة على استيعاب وظائفها وفهمها ثم تحليلها ما يشي بأن الانطباع قد يختلف -تبعاً لذلك - أو يتغير؛ يرتقي أو يتراجع؛ يتعزز أو يتلاشى..يتجدد أو يموت... وأياً ما يكن الحكم فها أنا ذا أعيد طباعة كتابي (جمالية الخبر والإنشاء) بصورته التي ظهرت للمرة الأولى؛ وإن جرى عليه تبديل عبارة هنا أو عبارة هناك...فقد حرصت على بقاء فحواه كما كان ليبقى صورة مخلصة ودقيقة لقراءة مضى عليها نحو عشر سنوات؛ وظلت راسخة – كما نعتقد -في أوساط البلاغيين والأكاديميين ومتذوقي الجمال والدرس النقدي الجديد...

وإني لأرجو أن ينتفع به كل من يصل إلى يديه؛ وأن يحكم عليه الحكم الموضوعي الذي يستحقه؛ وإلا فإني أتطلّع – من جديد – إلى تسديد ثغراته؛ وبخاصة أن الإنسان مجبول على النقص؛ والكمال لله وحده.

حسين جمعة

obeikandl.com

مقدمة

حين يغدو سكون النفس جمالاً، وحركة العقل وهجاً يعانق إشراق الكلمات؛ وشوقاً راقياً إلى فنون العرب البديعة.... يتماهى الوعد في الفعل.. فيتجلى عن دراسة جمالية بلاغية نقدية جديدة تتناول أساليب بلاغية في إطار يجمع بين الأصالة والمعاصرة.

...وكانت دراستنا السابقة (في جمالية الكلمة) المنشورة من قبل، قد استقرت عند مرافئ عديدة من شواطئ الجمال والصفاء؛ فارتاحت النفس لدى أطياف فصاحة الكلمة وبلاغتها؛ واستودعت فيها أنماط البيان والبهاء في الجملة الفعلية والاسمية من جهة الإسناد وأركانه ومواضعه ودلالاته وأحواله في الحذف والذكر، والتعريف والتنكير في المسند والمسند إليه والفَضْلة...

وللجمال أفنان وألوان أبدعتها ذاكرة الأجداد ومخيلتهم... فلم يقف الحُسْن في الكلام والحياة والفن عند حدٍّ معين... وإنما كانوا يبنون حياتهم وأدبهم ولغتهم ونقدهم بناء جمالياً يمتد إلى آفاق إنسانية رحبة؛ ومثيرة. فما خلَّفه الأجداد لنا من أساليب فنية وبلاغية إنما يدل على مدى عشقهم للجمال وولعهم بالحُسْن في كل شيء... ولما كان الجمال روح الأثر الفني لديهم بما يشكّله من مسار الإشراق المضاعف غدا وجهاً من وجوه الوجود الحي والفاعل... فالحسن الذي ترتاح إليه العين قبل النفس أصبح فضاء دلالياً مُشَخَّصاً في كل أسلوب من أساليب كلامهم؛ وكان لعلم المعاني منزلة كبرى في هذا المجال الجمالي لما يحمله من إغواء خاص.

ومن هنا يظل التعلق بالجمال هاجسنا، ويظل إبداع البلاغيين العرب في قراءتهم لطرائق العرب رائدنا، ويظل التفاعل مع النقد الجديد همّنا؛ لمواجهة التماثل والتشاكل في الجملة اللغوية التي تتصل بالدراسات الأسلوبية المعاصرة برباط متين يحث الآخرين على النظر فيه.

obeikandl.com

ولمّا كان ذلك كذلك دفعتنا الرغبة من جديد إلى تلمس مواطن الجمال في أساليب البلاغة العربية وإدراك عناصرها اللغوية البنيوية والفنية المتألقة، متوخين الوصول إلى انكشاف النص – صَغُر أم كبر - بقيم نبيلة رفيعة صافية صفاء نفوس أهلها.... أي إن الرغبة الأدبية تدفعنا إلى استجلاء ملامح ذلك وبيان قيمتها في واحد من أهم أساليب علم المعاني؛ إنه أسلوب (الخبر والإنشاء).

فأسلوب الخبر والإنشاء لا يكتفي بأنه يجسّم ظلال الجمال الأَخَّاذ؛ ويمتح من فضاء النور رونقه، ويأخذ من وسط العِقْد جوهرته ودُرَّته وخَرِيْدته فقط وإنما يحقق للفكر عطشه إلى المعرفة، واستلهام أسرارها.... ودراستنا لأسلوب الخبر والإنشاء لم تكن على مبدأ النسخ والتقليد أو التبعية والاستحضار لكل ما قاله القدماء والمحدثون... بل كانت على وجوه حضور الكينونة البلاغية وهي تنبثق من التحليل والدرس والفهم والموازنة والاستقراء والاستنباط في إهاب ثوب جمالي شفاف نسج خيوطه الذهبية مع معين المذاهب الجمالية والنقدية واللغوية الحديثة... في الوقت الذي بني على ماهية الأصالة الفاعلة.

إنها دراسة تستند إلى مفهوم الفعل الممتد المؤثر في جوهر الأساليب الجمالية لعلم المعاني ومعرفة أبعادها الحقيقية والمجازية والوقوف عند أسرار وظائفها العظيمة التي لا تنتهي.... فكلما تأملها الدارسون بعيون مفتوحة، وقلوب يقظةٍ، ونفوسٍ شغوفٍ بكل جديد أبانت لهم عن مخزون دلالي لا ينفد ولا ينقطع على مرّ الأجيال... وبهذا الوعي يتقدم أسلوب الخبر والإنشاء ليحتل المكانة الأولى في جمالية علم المعاني... ولهذا كان الانحياز إليه...

إن أسلوب الخبر والإنشاء بكل إيحاءاته ينتقل من البعد النصي إلى البعد الدلالي، ويوضّح لنا أن البلاغيين العرب امتلكوا حساً جمالياً راقياً لمفهوم التشكيل والصيغ قارب ما عرفه الشكلانيون المحدثون.

إنهم أدركوا أهمية الخطاب البلاغي اللغوي في عناصره ومكوناته، ولا

سيما حين اتجه نظرهم إلى المفهوم الجمالي الذي يمارس استفزازاً للعقل؛ في الوقت الذي يثير الدهشة والانفعال فيأخذه إلى مكبوتات كثيرة. ومن ثم التقوا مع الشكلانيين الجدد، وزادوا عليهم وَلَعَهم بالشكل الجمالي الذي يكشف رسائل عديدة من أهمها الرسالة الدلالية المجازية البعيدة الغَوْر، بمثل ما التقوا بالنقاد أنصار الشكل. ولعل البلاغيين العرب قد سبقوا الغرب حين أكدوا أن الاتصال بالصور البلاغية وأساليبها، ومعرفة دلائلها لا يتم في ضوء المفاهيم البلاغية فحسب؛ بل يرتقي إلى مستويات أخرى في التركيب، يقوم بعضها على مستوى توخِّي معاني النحْو كما هو عند عبد القاهر الجرجاني؛ وبعضها الآخر على الدال والمدلول والمرجع كما هو عند أبي سليمان الخطابي في رسالته عن إعجاز القرآن. ما يثبت أن البلاغيين العرب كانوا يمارسون قراءة عامودية لفعل الأثر البلاغي وهذا كله أسبق من مفاهيم الأساليب الحديثة الغربية ومن مفاهيمها اللسانية والجمالية.

وفي ضوء ذلك كان واجباً علينا إبراز المفارقات الجمالية والبلاغية وما علق بها من اتجاهات نقدية وأسلوبية بهذا البحث الذي يتناول (جمالية الخبر والإنشاء) مؤسسين له بمدخل يبين مفهوم الجمال والجميل و الجليل، ويحدد ماهية الجمالية بوصفها منهجاً تحليلياً للدراسة. ومن ثم قسمناه إلى بابين اثنين: الأول بعنوان (من تأصيل مفاهيم علم المعاني إلى جمالية الخبر)؛ والثاني بعنوان (جمالية أسلوب الإنشاء).

أما الباب الأول فقد قسمناه إلى فصلين؛ حمل الفصل الأول عنوان (حدود ومفاهيم) وأبرز نشأة الحديث عن أسلوب الخبر والإنشاء وتأصيل مفاهيم (علم المعاني)؛ ومن ثم توقف عند تطور مفهوم الخبر والإنشاء، وإنزال أحدهما مكان الآخر.

أما الفصل الثاني فعنوانه (جمالية أسلوب الخبر). وتعلقنا فيه بمفهوم الخبر، وكشفنا عن أغراضه (وَفْق مقتضى الظاهر)؛ وهو ما عرف بفائدة الخبر؛ ولازم الفائدة؛ و(بخلاف مقتضى الظاهر)؛ وعرف بأربعة مقاصد:

الأول: إنزال خالي الذهن منزلة السائل المُتَردِّد الشاكّ؛ والشاك المُنكِر.

والثاني: إنزال غير المُنكِر منزلة المنكر.

والثالث: إنزال المنكر منزلة غير المنكر.

والرابع: استعمال لفظ مكان لفظ. ولم يعرض البلاغيون لهذا الأسلوب من قبل إلا نادراً، علماً أننا استنبطناه واستخلصناه من الدراسات القرآنية، وبخاصة تلك التي دارت حول إعجاز القرآن وما احتواه من دلالات مكثفة، وأفدنا فيه كثيراً من دراسات الدكتور منير سلطان في هذا الباب. ثم فصّلنا القول في الأساليب البلاغية المجازية، وزدنا عليها العديد من الأساليب مما لم يذكره البلاغيون سابقاً... وكنا نبرز في كل أسلوب ماهيته ووظيفته وخصائصه الجمالية التي تؤكد اتساقها مع الشكل اللغوي والبلاغي.

وختمنا هذا الفصل بالحديث عن أَضرُب الخبر الثلاثة: (الضرب الابتدائي؛ والطلبي، والإنكاري) وأخيراً جاءت مؤكدات الخبر تبعاً للأضرُب.

واستحق الباب الثاني - وهو أكبر البابين - عنوان (جمالية أسلوب الإنشاء الطلبي). وولجنا إليه بحدود وأبعاد بينت مفهوم الإنشاء، ثم تلمسنا أقسامه التي تتعلق بالإنشاء الطلبي بالتفصيل، وأَجَّلنا الحديث عن الإنشاء غير الطلبي إلى دراسة أخرى (للأساليب البلاغية الجمالية)... فعظمة أقسام الإنشاء الطلبي تحليلاً وموازنة وشرحاً مع بيان خصائصها اللغوية والجمالية التي استحوذت على هذه الدراسة وملكت قلبها... وجوارحها ما فرض علينا الاكتفاء بها؛ ليس لأهميتها أو أسبقيتها على الإنشاء غير الطلبي؛ فلكل كينونته وقيمه التي يتفرد بها؛ والتي تحوز بنيتها كل ما هو مختلف عن البنية الأخرى. ولهذا قسمناها إلى خمسة فصول تبعاً لأقسام الطلب؛ فكنا نتوقف عند الأسلوب الإنشائي الحقيقي ملتزمين بالنص البلاغي وما يؤديه في لعبة الغموض والوضوح، ثم نطوف بعد ذلك في الحديقة الغنَّاء للمعاني المجازية. فقد دلت هذه المعاني على أغراض عجيبة الشأن، وأثبتت ما كان عليه البلاغيون من رهافة

حس؛ وذوق بليغ بديع؛ وقدرة على معرفة أساليب العرب وطرائقهم في التعبير... ولمّا كانت أساليب البلاغة محمولة من مخيلة الذهن الصانع، والحدس المتوقد ومنفتحة على القراءة والبوح زدنا على ما جاء من المعاني المجازية معاني أخرى... ودرسناها كلها وفق منظور جمالي نقدي موازن ومثير.. ابتداء بأسلوب الأمر فالنهي فالاستفهام والتمني وانتهاء بأسلوب النداء الذي تطاول حجماً كتطاول صوت النداء في (يا وأيا)، واعتنى بطرائق وإيحاءات كتنوع أدواته وثراء دلالاتها.

وأخيراً كانت الخاتمة التي ضمَّت أبرز نتائج البحث؛ ولم تستطع أن تستوعبها كلها... ما جعلنا نوجز فيها؛ لنثبت من بعدُ فهرس المصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

ومرة أخرى أقول: بين الحركة والسكون علاقة تفاعل وتجاذب؛ فإذا كان السكون يمثل لحظة الاطمئنان والارتياح والصفاء والتأمل فإن الحركة تجسّد حقيقة الفعل والوجود، والتغيير، وتخترق الاطمئنان المتغلغل في الذات والكون لتُحْدث لحظة الاندهاش والإنتاج والإبداع والتقدم والنمو والارتقاء إلى مراتب الكمال والجلال أياً كان تكثيف الأسلوب اللغوي.

وكلَّما تماهى المرء في السكون والحركة قبض على مفهوم الجمال أولاً؛ وفعل الاستيعاب والفهم والتحليل ثانياً وبَثّ التأثير والتحريض ثالثاً. ولن يكون له ذلك إلا إذا بسط رداءه للمعرفة، وعقله للمنهج السديد العلمي والدقيق؛ ونفسه للتوق إلى كل جديد... وحواسه لالتقاط عناصر الجمال البديعة.

من هنا كان بحثنا المستمر عن دُرَر اللآلئ البلاغية في عِقْد نظمته أساليب العربية... وتزينت به كتب أفذاذ الرجال، في إطار التناظر والتناسب والدقة؛ والجودة. وحين أخذت هذه الفنون الجمانية بألباب المرء طفق يسعى وراءها في كتب البلاغة واللغة قديمها وحديثها؛ فيفيد منها موازنة ومناظرة، موافقة ومخالفة، ولا سيما دراسة أحمد مطلوب ومنير سلطان من المحدثين

وكتب الجرجاني والزمخشري والقزويني وابن أبي الإصبع والسكاكي من القدماء. ومن ثم تُستجلب الشواهد مما حوته المظان البلاغية ومما وقعنا عليه من دواوين الشعراء؛ عامدين إلى تحليلها جمالياً واستنباط أحكامها.

إن الهدف الذي نتوخى بلوغه إنما هو تقديم درس بلاغي جمالي نقدي من نمط جديد لأساليب البلاغة العربية يعتمد على الشرح والتحليل واستكناه العناصر الجمالية بكل أبعادها... مفيدين من فضاءات الدراسات القديمة كلها إعجازية أو نقدية أو أدبية أو لغوية... ومن ثم فإننا نفتح أعيينا على إبداع الآخر مما استجد في الشرق والغرب، لأننا نعتقد بأنه المنهج المفيد لدراستنا.... وحينما تمسكنا بأصول أساليب البلاغة لم نقع في مطب التباهي والتفاخر... ولما امتد فكرنا إلى كل حديث لم نُصَب بالدهشة والاستلاب؛ ومن ثم التبعية... فقد أدركنا في الحالين أن الثقافة موزعة بين خلق الله جميعاً، وأن العرب يملكون من أساليب الكلام الجميل والرشيق ما لا يملكه غيْرهم... وهو إرث فني مختزن في الذات والفكر واللغة والأدب والبلاغة... بل في الحياة كافة.

بقي علينا أن نوضح عدم تخريج الشواهد الشعرية؛ وهي متمكنة في مواضعها البلاغية، أي إنها مستمدة من كتب البلاغة المذكورة في الحواشي أولاً ولعل كثرتها دفعت بنا إلى عدم تخريجها من مظانها في الدواوين ثانياً علماً بأنها شواهد موثقة من الشعر القديم والحديث.

وبعد؛ فإنني أخشى أن أكون قد قصَّرت في إدراك ما أرجوه؛ ويقع تقصيري بين يدي قارئ لا يرى من الكأس إلا قسمها الفارغ فتأخذه العزة بالإثم ثم يعمد إلى التجريح والتشنيع... وقد نسي أن كل إنسان مركب على النقص.... وربما يقع بين يدي قارئ آخر جعل نفسه كشجرة زيتون معمرة؛ وظن أنه وحده من يملك الحقيقة المطلقة، لهذا لم يرض بما خطه قلمنا؛ وثارت به نزعة الاستبداد لما يراه. ولعل هناك امرءاً تمتد به الرغبة إلى رفض كل ما أبدعه البلاغيون العرب القدامى... في ضوء ثقافة مستحدثة... أو في ضوء قراءة

جزئية... أو في ضوء اعتداده بنفسه؛ فيشيح بوجهه عن هذه الدراسة؛ من دون أن يحتفي بها... لذلك كله؛ نبتهل إلى الله لكي تكون مفتاحاً للتحليل العلمي للنص البلاغي، وقراءته قراءة موضوعية، وأن تكون مثيرة للعقل قبل العاطفة؛ وباعثة في النفس منهج الحوار الفعَّال والمتكامل للوصول إلى ما فيه الكمال والخير لفعلنا الثقافي والحضاري... ومن ثم البلاغي الجمالي والنقدي.

إننا نقدم هذه الدراسة إلى كل قارئ آمن بتراث هذه الأمة؛ وأيقن بأنه وسيلة دفع ونهوض لحياتنا... في ضَوء انفتاح عقلي علمي حرّ وواعٍ وموضوعي على ثقافة الآخر ليدرك ما كنا عليه وما نحن فيه.

فإن كنت وفقت؛ فهذا فضل من الله، ومنَّة منه عليَّ؛ وإن كنت قصَّرت فعسى أن يكون هديك - عزيزي القارئ - موجهاً لي لإقالتي من عثرتي.. مستشهداً بقوله تعالى: ﴿قل أَمَر ربّي بالقِسْط﴾ (الأعراف 29/7).

و﴿الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ (النَّمل 59/27)؛ والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه؛ وهو ولي التوفيق.

حسين جمعة

obeikandl.com

obeikandl.com

((مدخل))

مفهوم الجمال والجميل والجليل والجمالية

قدَّم لنا تراثنا حضوراً عجائبياً على مستويات أدبية ولغوية وبلاغية وفنية، وعالج العديد من الرؤى الجمالية في قضايا الأدب والفن، واللغة والبلاغة... فضلاً عن قضايا الحياة والدين... وربما مثَّل قسمٌ منها تقارباً في الصيغ والأهداف والوظائف سواء تعلقت بمسألة الشكل الفني أم تعلقت بالمضمُون من دون أن ندّعي إمكانية القطع في أي واحدة منها.

ولعل الظاهر لدينا من دراسات أجدادنا القدماء تجسيدها لمعايير جمالية محددة في كل نمط إبداعي، وإن لم تصل إلى صفة الشمولية، أو إلى صفة الكمال.

ومن يطلع ـ مثلاً ـ على علم البلاغة العربية يدرك بكل وضُوح أن مصطلح البلاغة الذي جعله البلاغيون العرب غالباً مماثلاً للفَصاحة، وكلاهما ملازم للبيان إنما يحملان ملامح الصفاء والنقاء والبهاء؛ والجودة والإتقان، والوضوح والدقة في الدلالة والاختيار، وتنقية كل أسلوب من أي لفظ يشينه، تحسيناً وتزييناً، ليغدو النصّ متلاحم الأجزاء، عذباً رقيق الحواشي، بعيداً عن التقيد والغموض والهشاشة والضَّعف والتنافر... إنه قطعة نسيج حَبِرة دقيقة الصنع ناعمة الملمس، قوية التأثير... مثيرة للعاطفة والفكر معاً...[1]

فأي باحث يتأمل في أساليب البلاغة؛ يلحظ أن المتكلم لا يكتفي بأن يعرض أسلوبه بشكل تقريري مباشر؛ وإنما قد يرسله على سبيل المجاز، مستخدماً أساليب مرافقة له كالترصيع؛ والتصريع؛ والإشارة؛ والتلويح.... ليزيد كلامه ألقاً وإشراقاً... وهذا كله من عناصر الجمال...

وحينما شددنا على ذلك كله في كتابنا (في جمالية الكلمة) بوصف

كل مادة ترتقي إلى البلاغة والفصاحة ما يعني أنها شكل جمالي؛ وكذلك هو الشأن في كل ما يتعلق بأحوال الإسناد والذكر والحذف، والتعريف والتنكير رأى دارسون آخرون أن الجمال يتركب ـ فقط ـ من نظام الأشياء أو الظواهر وفق مفاهيم أرسطو[2]. ومن ثم فإن الجمال هو التعبير الجمالي الناجح عند كروتشه[3].

وإذا كان هذا وحده – على أهميته -لا يرضينا؛ وإذا كانت إشارتنا هذه شديدة الإيجاز؛ لأن البحث لا يتجه إلى التفصيل في أمر مفاهيم الجمال فإننا نذهب إلى أن الجمال وقع في الإبداع البلاغي كما وقع في غيره من أنماط إبداعية إنسانية عبرت عن تجربة ما، أو فكرة من الأفكار ولا سيما حين حَرَصت أساليب البلاغة على استبطان أسرار الجملة اللغوية والنحوية والأدبية لتصل بالكلام العربي إلى مرتبة البيان الناصع المؤثر الساحر الذي يثير النفس والفكر إذا سمعه البلغاء؛ كما جرى مع سيد المرسلين حين استمع إلى عمرو بن الأهتم وأعجب بقوله فقال: [إن من البيان لسحراً] [4]... ولعل هذا كله ما جعل ابن الأثير يربط بين البيان والجمال؛ فيقول: "شيئان لانهاية لهما: البيان والجمال" [5].

فالبيان/الجمال في أساليب العربية أدباً وبلاغة يمنح المتلقي السعادة والراحة... ما جعله يغدو هدف الدراسات الحديثة بوصف الأساليب الإبداعية التعبيرية إنتاجاً إنسانياً جمالياً؛ وبوصفها تماثل الجمال الذي تلتقطه الحواس من الطبيعة والأشياء والظواهر. فالجمال ـ كما نعرف ـ يرتبط بالظواهر الطبيعية؛ وكذلك يتصل بكل إبداع إنساني من جهة الشكل غالباً؛ بينما الجميل يحتاج إلى الحواس والشعور معاً... وهو يرتبط بالقيود والقوانين الناظمة للكلمات ودلالتها، على الرغم من أنه يبدو لأول وهلة مستقلاً عنها... أي إنّه يراعيها ويتفق معها على الصعيد الفردي والجماعي من جهتي الوظيفة والهدف... بينما يظل الجمال مرهوناً بالتذوق الفردي ورهافة الحس ودقته وسلامته... ما يجعله متحرراً من كل قيد إلا ذلك... وتتمثل الأشكال الجمالية

في الفن المبدع بظواهر أسلوبية عدة؛ منها التناظر والإيقاع؛ والتوازن والتناغم و التوافق والتنوع مع الوحدة والتناسب والتصوير، ونظام التأليف....

وحينما يلح غير واحد من الجماليين على الشكل في مفهوم الجمال فإن آخرين يرون أن الجميل إنما هو تجلي الروح والأفكار في الأشياء والظواهر... والجميل في الفن والأدب والبلاغة هو نهاية المطاف من جهة ما تعرف له المضامين، أما الجليل فهو يتطلع إلى مقام رفيع سام يتجسد بالوجود الإلهي، وكل مثل أعلى للجمال... أي إن الجليل يرتقي بمرتبة الجمال والجميل إلى حالة الكمال المطلق، إذ لا يوجد شبيه له في الأشياء والظواهر، وإبداعات الإنسان... على الرغم من أن الإنسان قد يرتضي لنفسه نماذج إبداعية إنسانية أقل درجة عالية من الروعة، وإن وصلت إلى مرتبة قريبة من الجليل، ولكنه يصفها بالكمال والجلال؛ على حين أن مفهوم الجليل مرتبط بالمعتقد الديني عند عدد من الدارسين والنقاد؛ لأنه يقابل مفهوم الذات المقدسة. فالله أسمى من كل ما في الوجود؛ لأنه خالق الكون، وهو الخير المثالي، والمظهر المطلق للكون والإنسان والمصير؛ علماً أن لكل جمال جلالاً ولكل جلال جمالاً، وما بأيدي الخلق يظهر لهم من جمال الله[6].

فالجليل – بهذا الفهم -تشكيل فني يتمثل بالموجود وجوداً موضوعياً مستقلاً عن الكون والإنسان؛ ما يجعله موضوعاً جمالياً يكاد يخترق بطبيعته السامية فاعلية الزمان والمكان، لأنه يجسّد لا نهائية العالم ـ على حد قول عدد من الفلاسفة القدماء والمحدثين ـ ولهذا حاول الإنسان أن يجعل بعض إبداعاته الممثّلة لقدراتٍ روحيةٍ عجيبةٍ، ولطاقاتٍ فنية مدهشة نَمطاً من الإبداع الجليل...

أما الجمالية فلها شأن آخر؛ فنحن نتناولها ليس بوصفها دلالة على كل شيء جميل؛ أو أنها يمكن أن ترادف معنى الجمال /البيان/ البلاغة في الأدب والفن وأساليب البلاغة العربية؛ وكأنها لون من ألوان الإبداع في الجمال، ولو مثّل المفهوم حالة من التناغم بين الشكل والموضُوع... وإنما نتناولها كونها منهجاً تحليلياً لدراسة نقدية فنية أدبية بلاغية.... يتصف بآليات كتلك التي

يعتمدها المنهج الواقعي أو النفسي أو الرمزي أو الاجتماعي، منهجاً يعالج جمالية النّص الإبداعي كالدقة والجودة والإتقان ونظام التركيب وتناسبه وإيقاع ألفاظه وصوره...

لهذا تتعلق الجمالية بالتجربة الجمالية[7] ذاتها من جهة الشكل والمضمونُ؛ وتماثل ما أطلق عليه بعض الباحثين (المنهج الجمالي) الذي يرتكز في أساسه على نظرية (علم الجمال: الاستطيقا)؛ ويحكم بها الناقد أو البلاغي على الأشياء سواء كانت طبيعية أم مصنوعة... أم كانت إبداعاً فنياً أو لغوياً أو أدبياً و... بأحكام جمالية؛ كأن توصف بأنها جميلة أو فاتنة أو دميمة أو مثيرة للسخرية... [8]، علماً بأن الإبداع في النقد الأدبي يتركز بأربعة أشياء (العاطفة والفكرة والأسلوب والخيال)[9] فالخيال صانع للصور الجمالية التي تلبي جملة من الأهداف والوظائف.

ومن ثم فالجمالية هي دراسة جملة من المسائل مجتمعة أو منفردة؛ مثل: ما الجمال؟ ما الغاية التي يقوم عليها نصّ ما، مهما كان حجمه وجنسه؟ ما علاقة الشكل بالمضمُون في أي نمط إبداعي؟ ما العناصر التي تشترك في صياغة نصّ جمالي ما، وتكون ملامحه ووظيفته..؟ إنها أسئلة كثيرة، يسعى المنهج الجمالي (الجمالية) للإجابة عليها، [10] بروح موضوعية بعيدة عن العواطف والأفكار المسبقة. فالجمالية مفهوم ومنهج يدخل في صميم النسيج النَّصي باحثاً عن فتنة الصياغة؛ وجِدَّة البناء، ومحاكمة الدلائل المعنوية.

بهذا كله نحن نقف مع العديد من الباحثين الذين توسعوا في مفهوم الجمالية؛ ـ وإن كان أكثر منظريها لا يقيمون أهمية تذكر لمضمُون النّص ووظيفته وغايته ـ أياً كان نوعه تاريخياً أم اجتماعياً؛ نفسياً أم فنياً، خلقياً أم دينياً؛ لغوياً أو بلاغياً؛ موسيقاً أم أدبياً... [11].

وإذا كنا نعالج أي أسلوب بلاغي فإننا نقف عند بنيته كاملة من جهة الشكل والمضمون؛ في دلالته الحقيقية والمجازية الموحية بالظلال المعنوية

الكثيرة، ولا نهمل قيمته الخلقية أي إننا نتناول شبكة النص في استيعابها واستيفاء عناصرها لمعرفة الفضاءات التي تتحرك فيها.

إننا ـ ونحن نسعى إلى ذلك ـ لا تمنعنا عن رؤيتنا آراء أولئك الذين رفضوا الوظيفة والغاية الخلقية النبيلة في الإبداع من أصحاب النظرية الجمالية؛ فذهبوا إلى أن البحث في الأدب أو الفن أو أي إبداع آخر عن الوظيفة والغاية السامية إنما هو أمر مضحك؛... فالأخلاق والقيم والصدق في القول والفكر والحياة – لديهم -لا يبحث عنه إلا الأنبياء والمصلحون..... ومن هنا رأى بعض الباحثين الجماليين أن الأخلاق ليست من معايير الجمال، ولهذا لم يحكموا على الأعمال الخيرة بالجمال؛ والشريرة بالقبح، وإنما نظروا إلى العناصر الجمالية باعتبار نظامها[12].

ولعلنا في ذلك نستند إلى معنى المصطلح في الأصل اللاتيني (Aisthesis)، وهو التطلع إلى موضوعات طريفة وإدراك أحوال الجملة لغة وبلاغة، وهي تولّد الرؤى والمفاهيم... فالجمالية مصدر صناعي يقابل الجمالي؛ وهذا المصطلح يعادل مصطلح (استطيقا Aesthetica) وهو ترجمة لكلمة (Aesthetikos) اليونانية الأصل استطيقي (Aisthētikos). وقد صاغه للمرة الأولى الفيلسوف الألماني بومجارتن عام (1735م) [13].

ولهذا فهو من جهة اللفظ الاصطلاحي يرادف عند بعض الباحثين مفهوم (الشكلي أو الفني) بوصفه بنْيَةً[14] تتجاوز الشكل، وتمتد إلى كامل أبعادها الفلسفية والفكرية والاجتماعية والتاريخية... باحثة عن شهوة التأويل... على حين أصبحت نظرية النقاء الفني الجمالي عند تيار آخر[15] تقتصر على البنية الشكلية لمصطلح الجمالي/الجمالية.

وأياً ما تشعبت الآراء في مفهوم الجمالية؛ فإنه يعد منهجاً تحليلياً نقدياً لدراسة البنية اللغوية والأسلوبية وما تؤسسه من مكاشفات دلالية وفنية، ووظائف وأهداف... لأن النص الإبداعي -أياً كان جنسه -مكابدة لغوية

أسلوبية ذات بعد دلالي؛ وهو يؤكد خصائصه باتجاهين: الشكل والمضمُون؛ ولا فَصْل بينهما... مما يحقق للنصّ صورته الإيجابية الفعَّالة، ومن ثم تجسد ماهيته الجمال بكل وجودها الذاتي وعلاقتها بتوليد المعاني البلاغية واللغوية... لأن للكلام جسداً وروحاً، وكذا لكل جسم جوهر وحقيقة...

وأي أسلوب بلاغي ـ مهما قيل فيه قديماً وحديثاً ـ إنما هو بنية لغوية دلالية مباشرة وغير مباشرة يحمل وظائف الإثارة والإمتاع في الوقت الذي يحمل وظيفة التوصيل والإبلاغ والإفادة بنقل الأفكار... ولهذا فوظيفة الأسلوب البلاغي ذات وجوه متعددة في توليد الأفكار والمواظبة عليها؛ بعكس الأسلوب العادي الذي يدور على ألسنة الناس؛ وقد تتجاوز الأسلوب الأدبي في الشعر والنثر؛ وإن اقترب في وظيفته من الأسلوب البلاغي في بعض الوجوه.

فالأسلوب البلاغي بوصفه ظاهرة لغوية بلاغية تجمع بين عناصر الأدب والفن واللغة والحياة في بنية فنية مثيرة للعاطفة والوجدان والعقل.... بما تكتنزه من أسرار موحية في هوية النص... وما على القارئ المرهف المثقف الذي حاز الشروط الذاتية؛ ثم الموضوعية[16] إلا الحفر العميق في مكونات كل أسلوب واستيعاب الكثافة التي بني عليها ليفهم إشاراته القريبة والبعيدة، من دون أن يقع في مطب الأحكام الذاتية والانطباعية، والمسبقة والجاهزة... فالإحساس بالجمال تأمل طويل في الموضوع الجمالي، واستجابة روحية وموضوعية لعناصر الجمال في الأشياء والظواهر و...

وإذا كانت الأحكام البلاغية الجمالية قد تباينت بين متلقٍ وآخر قديماً وحديثاً وتمايزت تبعاً لهذا الأسلوب أو ذاك فإننا حاولنا استكناه كل ما قيل فيه، والغوص في فهم الظاهرة البلاغية القرآنية للوصول إلى تجربة جمالية جديدة في أسلوب الخبر والإنشاء. وهو ما سعينا إليه من قبل في دراسة توقفت عند عدد من جماليات الكلمة البلاغية[17] وحاولنا القبض على الحلم البلاغي النقدي الذي يطوف في خيالنا.

ومن هنا يمكننا أن نقول: إننا نسعى إلى تجاوز الرؤية الجمالية الجزئية التي استند إليها البلاغيون العرب القدامى؛ بالتقاطهم المعنى البلاغي الحقيقي والمجازي من النص وإعادة إنتاجه وإرساله بالقوة التي تشكّل فيها... فعملنا يقلّب وجوه المعرفة البلاغية والأسلوبية في بُعدها الشمولي، ووفق مبدأ التنظير والتطبيق للرؤية الجمالية المستمدة من بنية الأسلوب البلاغي؛ وإن اجتزئ من نصّ أدبي أو لغوي ما، ولكنه لا يهمله أو ينساه. وهو المنهج الذي أسسه لنا البلاغي الفذ عبد القاهر الجرجاني في نظرية (النظم) وفي مصطلح (الهيئة) الذي يبنى على الصورة والدلالة... وكذلك فعل عدد آخر غيره في النظر إلى الأسلوب البلاغي في سياق نصّي متكامل، ولا سيما ما وجدناه عند البلاغيين الذين تناولوا النّص القرآني كالباقلاني والزمخشري...

ونحن لا نرتاب لحظة واحدة في أن البلاغيين العرب القدامى قد توقفوا عند شكل الجملة اللغوية؛ ولكنهم لم يروا هذا الشكل محايداً بذاته عن جهات النص الأخرى. فقد ارتفع مفهوم التذوق الفني البلاغي لديهم حينما انتهوا إلى أن أي شكل بلاغي يحمل في طبيعته الجمالية مفاتيح وعي الإنسان لما يحيط به بطريقة إرادية أو لا إرادية. وبهذا ارتقوا عن مفهوم الجمال الطبيعي المجسد في ماهية الأسلوب اللغوي وخرجوا إلى منطوق لغوي بلاغي يستغرق شبكات عدة من التأويل. فاللغة والصورة والخيال والإيقاع أدوات يتجسد فيها مضمون ما؛ ينطوي على وظائف متنوعة وأهداف كثيرة؛ حين يتكامل مع التجربة الإنسانية ويعبر عنها بكثافة لغوية بلاغية مثيرة وثرية، مما يحقق للشكل البلاغي الجمالي فلسفة تفسير الوجود والكون والمصير.

ولهذا كله فإن البلاغيين والنقاد القدامى قد أغنوا الأساليب البلاغية بنظراتهم الجمالية والفلسفية، ولا سيما ما يتعلق بالبلاغة القرآنية. ولما اختلفت تفسيراتهم لمعنى الشكل البلاغي - أحياناً - أمدونا بتنوع تعبيري جمالي لا نظير له من الفكر والفن في كل أسلوب من تلك الأساليب. فالوجدان الجمالي الحقيقي في كل أطيافه انبثق من الشكل - دون ريب - ولكن عناصره لم

تتقيد عندهم بزمان ما؛ أو مكان ما؛ أو سبب ما... فالتذوق الذي مارسوه على الشكل انخرط في صميم التجربة الإبداعية؛ فاستمدوا منه العديد من الرؤى الفكرية والفنية التي لا يستطيع عامة الناس أن يستنبطوها. وكانوا كلما انغمسوا في الأسلوب البلاغي انغماس الصوفي الناسك، واستغرقوا في عالمه الخاص يستخرجون لنا ضروباً من الجمال الموحية بالصفاء والنقاء والبهاء في صميم الصيرورة الوجودية والبلاغية... ومن ثم أكدوا أن الصورة اللغوية البلاغية ليست مجردة؛ بل هي صورة تعيش في عالم الحياة؛ وتستجيب على الدوام لكل انفعال ولكل فكر. فظلت أعمالهم خالدة حية في وجداننا ووجدان الدارسين الغربيين المنصفين الذين اعترفوا لهم بالفضل و الريادة. ثم إن الدرس اللغوي البلاغي الناجع والمفيد هو القادر على استجلاب التجربة الأدبية أو الفنية؛ البلاغية أو اللغوية، في إطار التجربة الإنسانية؛ ووجودها الزماني والمكاني والثقافي... ولا يجوز أن ترتهن هذه التجربة للآخرين؛ أو تنفتح على مشيئتهم متى شاؤوا استحضروها من دون أن يشيروا إلى أصحابها الحقيقيين... فأي قراءة جديدة؛ -من أي نوع – إنما ينبغي أن تكون شاهداً على ما قدَّمه لنا الدارسون والنقاد واللغويون والبلاغيون... من أي أمة كانوا...

وحينما ندرك ذلك تحدونا الرغبة إلى الوقوف عند فضاءات بعض الأساليب البلاغية الموزعة على رقعة المَظَانّ القديمة والحديثة من دون أن يأخذنا بريق مكانة أصحابها إلى الانحراف والزيغ، أو التشويه والتغيير؛ أو النقل والاستنساخ.

ولا بأس علينا أن نؤكد في ختام هذا المدخل أن الجمال مقترن بالبلاغة والفصاحة والبيان... بمثل ما هو مقترن بالجودة والإتقان والدقة، وإنزال الألفاظ في مواضعها من نظامها الدقيق المؤتلف... ثم إنه نظام التوافق والتوازن والتناظر... والبهاء هو الرونق في الديباجة، والتناسب فيها...

ومن ثم فمن يتأمل مسائل الجمال في البلاغة العربية يدرك مدى الانسجام المطلق القائم على خطوط متوازية ومتنوعة في إطار الوحدة والتنوع والمحل سواء

ربط الأسلوبان بأثرهما في النفس أم في الفضيلة التي دعا إليها أفلاطون للوصول إلى مبدأ اللذة والإمتاع مع الفائدة... وبهما يتحقق مفهوم (الجميل).

ولعل مجرد إثارة مثل هذه القضايا تعد سبيلاً إلى الحوار الواعي لحل مشكلة مفهوم الجمال ومنهجه المتصلين بأساليب البلاغة العربية... التي صاحبت التفكير الجمالي عند العرب؛ وإن لم يخصوه بالدرس المنفصل.... وهذا لا يعني أننا نتوقف عند مجرد المحاكاة الجمالية للفكر الجمالي الغربي، بل نؤسس طريقة جديدة في دراسة البلاغة العربية دراسة جمالية تتحدث عن علاقة الجمال بالفن وفي طليعته فن البلاغة بوصفه فناً مضمخاً بعشق الوجود؛ واقعاً وخيالاً؛ وحاملاً لرمزية الرغبة في اكتشاف المجهول، ليصل إلى مهابة اختراق المألوف.

ولعل هذا كله ما نتمثله في جمالية الخبر والإنشاء في حدودهما ومفهومهما وآلياتهما ودلالتهما الحقيقية والمجازية.

obeikandl.com

(((حواشي المدخل)))

(1) راجع كتابنا: في جمالية الكلمة 21 . 50 وانظر كشاف اصطلاحات الفنون 1/187 . 189 ومداخل إلى علم الجمال الأدبي 58.

(2) انظر الأسس الجمالية في النقد العربي 43 ومداخل إلى علم الجمال الأدبي 12 . 16.

(3) انظر علم الجمال 14 وانظر الأسس الجمالية في النقد العربي 53 وفلسفة الجمال في الفكر المعاصر 17 . 21 ومعنى الجمال 73.

(4) الجامع الصغير من حديث البشير النذير 1/231 (حديث رقم 2456).

(5) المثل السائر 1/40 وانظر فيه 33 . 38.

(6) انظر كشاف اصطلاحات الفنون 1/330 . 332 ورسائل ابن عربي 25 . 43.

(7) انظر النقد الفني . دراسة جمالية وفلسفية . 3 وعلم الجمال الأدبي 23 . 24 و26 . 28.

(8) انظر مقدمة في النقد الأدبي 48 (محمد حسن عبد الله) دار البحوث العلمية . الكويت . 1975م.

(9) انظر النقد الأدبي . أحمد أمين . 22 ومداخل إلى علم الجمال 38 . 39 و92 . 93.

(10) انظر موسوعة المصطلح النقدي (الجمالية) 273 ومداخل إلى علم الجمال الأدبي 14 . 18 و100 . 128.

(11) انظر النقد الفني . دراسة جمالية وفلسفية . 31 وموسوعة المصطلح النقدي 307 و314 و362 والأسس الجمالية في النقد العربي 371.

(12) انظر الأسس الجمالية في النقد العربي 86 و371 و378 ومداخل إلى علم الجمال الأدبي 40 . 54 و91 ومعنى الجمال 93 . 105 . وسينهض كتابنا القادم التقابل الجمالي في النص القرآني بذلك كله - طبعة دار النمير - دمشق - 2005.

(13) انظر معنى الجمال 9 و39 (الهامش).

(14) انظر مقدمة في النقد الأدبي 434 (علي جواد الطاهر) المؤسسة العربية للدراسات . بيروت . 1979م.

(15) انظر النقد الفني . دراسة جمالية وفلسفية . 29 و202 وفلسفة الجمال في الفكر المعاصر 52 . 67.

(16) انظر كيفية قراءة النص الأدبي 269 . 322 ومداخل إلى علم الجمال الأدبي 22 . 25 و29 . 39.

(17) انظر (في جمالية الكلمة) فصول (مفهوم الكلمة وجمالياتها في الفَصاحة والبلاغة؛ ومفهوم الجملة وجمالياتها من جهة البنية والأركان وأحوال الإسناد في الذكر والحذف؛ وجمالية التعريف والتنكير)....

***

openkanal.com